المحور الشرقي.. خيار أم ضرورة؟

إيران.. العراق.. سوريا.. لبنان.. منظمة التحرير الفلسطينية..

هل هو حلم بعيد أن تنتظم هذه الكيانات الخمسة في محور صلب، يستعصي على الاستسلام، ويشد بعضه بعضا، ويصون كرامة الأمة كلها بموقف متماسك وقدرة متجددة على الصمود؟ أم أن الزمن تخطى السؤال وأن الظروف الواقعية نضجت فعلا، وأن هذا الخيار أصبح الخيار الأوحد المحسوس الذي لا خيار غيره لمجموع الأمة ولكل كيان من هذه الكيانات على حدة؟!

إن البديل عن ذلك هو بطبيعة الحال استمرار الأطراف الثلاثة الأخيرة في مفاوضات مضغ العلكة، بينما الخطط الشارونية تنفذ على نار حامية في فلسطين ويجري التجهيز لها على نار هادئة متفاوتة الحرارة بغرض ضرب كل من إيران والعراق أولا، وسوريا ولبنان إن لزم الأمر ثانيا، وربما ضربها كلها في توقيت واحد مفاجئ. (ويحضر في الذهن الآن الطريقة التي تصرفت بها إسرائيل في عهد مناحم بيجن ووزارته الليكودية، حين دمر الطيران الإسرائيلي المفاعل النووي العراقي).

لقد أصبحت خطط شارون فيما يتعلق بالمناطق التي تعرف بمناطق السلطة الوطنية الفلسطينية واضحة. وهي باختصار ودون أية مخادعة للذات : إتمام ما بدأه جميع أسلافه من نهب للأراضي وتهجير للسكان مع إعطاء أهمية خاصة للغرض الثاني، ألا وهو التهجير. والوسيلة لذلك هي القيام بالمزيد من أعمال التجريف والتصحير في الأراضي وتقليص كميات المياه المتاحة للفلسطينيين، بحيث تضيق الأرض بأهلها ولا يعود لديهم ما يقوتهم فيها، وكذا إحداث مزيد من إجراءات التفتيش والتضييق على تنقل الناس بين مدنهم وقراهم وإحداث الشلل في الحياة عموما، وإغلاق المعابر حينا في وجه المسافرين والقادمين، وبعد ذلك اقتراف مذبحة مروعة تتناقل أخبارها الناس، ثم فتح المعابر لرحيل من يريد . وفي المقابل فإن شارون جاد تماما في مشاريعه لاستقدام مليون يهودي مستجلب إلى فلسطين.

لقد تركت القمة العربية والإسلامية أهالي فلسطين أمام الدبابات والجرافات والطائرات ليلاقوا مصيرهم كيفما كان. إلا أن الله لن يضيعنا، لأننا موجودون بقدر منه ووفقا لنبوءة من خاتم أنبيائه. إن سلاحنا هو إيماننا واطمئناننا إلى أن الميتة التي قد نموتها هي التي كنا سنختارها لو كنا بعيدين عن البلاد.

ولكننا نتحدث الآن عن الصراع في مداه الأوسع المحتوم زمانا ومكانا. ولقد جعله الإسرائيليون محتوما برفضهم أن يكونوا جزءا من سكان المنطقة، وإصرارهم على أن يكون سكان المنطقة عمالا وخداما يحملون غلتها إلى مخازن إسرائيل التي لم يفارقها حلم إسرائيل الكبرى.

يريد شارون ومن هم على شاكلته، أن يكرروا تجاربهم الماضية. وقد خلقت الأسطورة الصهيونية لنفسها أبطالا وأطلقت عليهم أسماء معينة، ونسبت لهم مناهج وأفكارا. فالمستوطنون يدعون روادا لا قتلة ولا مغتصبين. ومقترفو المذابح يدعون أصحاب حزم وعزم لا وحوشا ولا منحطين. وشارون من الجيل الذي يعد نفسه مؤسسا معدودا من مؤسسي الدولة بالحديد والنار والمذبحة.

نقول إن منظمة التحرير الفلسطينية ولبنان وسوريا والعراق وإيران كلها مستهدفة عسكريا وليس أمامها إلا أن تعد نفسها لهذا الاحتمال القوي. وليس معنى هذا أن مصر مستثناة، بل ولا الأردن ولا السعودية، ولكن استهداف تلك البلدان يكون عبر أساليب أخرى وعلى مدى زمني متراخ.

وعلى قدر ما نفهم الشخصيات الإسرائيلية القيادية فإن أفكار شارون تتجه أكثر ما تتجه إلى إيران والعراق. ولا نشك أن التحضير لضربهما جار على قدم وساق. وقد يكون الحديث عن ذلك بندا أساسيا من بنود المحادثات بين بوش وشارون في واشنطن. ولعلها السر الأكبر في التوافق الملحوظ الذي ظهر عليهما في نهاية محادثاتهما. وبذلك يحقق بوش منهجه في استخدام الآخرين بتنفيذ سياساته دون أن تنخرط الولايات المتحدة في ما لا لزوم لانخراطها فيه، ويحقق هاجسه وهاجس أبيه المستمر بالقضاء نهائيا على روح المقاومة في العراق. ولا ننسى أن صاحب فكرة الاحتواء المزدوج مارتين إنديك ما زال يتمتع بمكانته في وزارة الخارجية الأمريكية سفيرا في تل أبيب.

فالسياسة الإسرائيلية عموما أبدت القلق المتناهي حيال صفقات الأسلحة الروسية لإيران. ويتخوف الإسرائيليون من احتمال أن تتوطن الخبرة الصناعية النووية في إيران وفي العراق. وقد فشلت المساعي الأمريكية الرامية إلى إقناع بوتين بعدم تنفيذ الصفقات التي تفاوض عليها مسبقا. كما أن زيارة مادلين أولبرايت قديما إلى كوريا الشمالية كانت تهدف إغلاق هذا الباب المتاح لسوريا والعراق وإيران.

سوف تتفاعل هذه المخاوف الأمريكية الإسرائيلية المزمنة مع هوس شارون بالمغامرة العسكرية ورغبته في أن يدعى من جديد بطل إسرائيل، لتشكل في ذهنه قرارا بشن هجمات مفاجئة، بالطيران وأفراد الوحدات الخاصة غالبا، على مناطق معينة في كل من إيران والعراق، وربما سوريا ولبنان أيضا. وحجته في ذلك أن من الضروري تدارك الوضع قبل أن يتطور تسليح هذه البلدان فيوازن ما لدى إسرائيل، وبالتالي يحيد قوتها، ويضطرها إلى التعامل مع المنطقة من موقع الندية وليس من موقع الأمر والنهي.

هذا نموذج مفترض لتفكير رجل كشارون، بخلفيته وتاريخه. وغير بعيد عنه بوش الابن الذي يقتبس حتما عن بوش الأب.

<u>من أفشل كامب ديفيد؟ من فجر الانتفاضة؟</u>

يا للهول، كيف تنقلب الحقائق، وتلفق المعلومات، ويجري استغفال العالم بواسطة كومة الأكاذيب التي دأب الإعلام المعادي على ترديدها حتى أصبحت حقائق في نظر الغرب، ووجد ثلاثمائة عضو من الكونغرس ذريعة ليحملوا على الضحايا الفلسطينيين لحساب الجلادين الإسرائيليين!!

وأول حقيقة جرى قلبها رأسا على عقب هي الخاصة بالإجابة على سؤال : من هو الذي أفشل مؤتمر كامب ديفيد؟

وثانيتها هي الخاصة بالإجابة على سؤال : من هو الذي فجر العنف؟

كانت الأمور لدينا واضحة كل الوضوح. فالورقة الأمريكية التي أخرجها بيل كلينتون من جيبه اتضح أنها ورقة إسرائيلية، سبق أن حصل عليها بعض أعوان الرئيس ياسر عرفات قبل

انعقاد مؤتمر كامب ديفيد وقدموها للرئيس الذي وجدها أمامه فعلا هناك. و استخدمت الولايات المتحدة في الضغط على الفلسطينيين أساليب قصوى لتمرير تلك الورقة، منها قول جورج تينيت رئيس المخابرات المركزية الأمريكية لعرفات (بحضور صائب عريقات الذي روى الواقعة أمام المجلس التشريعي الفلسطيني) : إن منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها غير ثابتة، بل قابلة للتغيير. فما عرفناه من صائب عريقات في المجلس التشريعي هو أن هذه العبارة قيلت لياسر عرفات حينما رفض الورقة الأمريكية الإسرائيلية التي أرادت أن تعطي الفلسطينيين سطح المسجد الأقصى وتعطي الإسرائيليين ما تحت السطح (إلى أعماق غير متناهية طبعا!)

وأهم من هذا مجموعة الاعترافات التي أدلى بها إيهود باراك في محاضرته في وزارة الحرب في تل أبيب غداة تفجر الانتفاضة وهي الاعترافات التي نشرتها صحيفة صغيرة يصدرها المستوطنون بعنوان (نتيف) وفيها تحدث الرجل بمنتهى الصراحة والوضوح عن أن تفجير الموقف كان خطة مرسومة معدة سلفا ليكون هناك مبرر لقيامه بتنفيذ خطة الفصل. أي خطة ضم ما تبقى من الأراضي بيد الفلسطينيين إلى المستوطنات ومحاصرة الفلسطينيين في أوضاع تجبرهم على الرحيل. وآنذاك تسرب محضر هذا الاجتماع الذي حضره شارون، ونقلته الصحف الإسرائيلية. ولكن هذه السيرة اختفت فجأة بعد ذلك. ولم يتكلم عنها العرب ولا اليهود على الرغم من أن فحواها صريحة بنسبة مائة في المائة بأن تفجير الانتفاضة كان عملا إسرائيليا مدبرا، وأن الفلسطينيين تصرفوا من منطلق رد الفعل على تدنيس شارون ساحة المسجد بمداهمته مع عسكر باراك يوم الخميس، ثم تجهيز الرماة في اليوم التالي ليطلقوا النار بلا سبب ظاهر على المصلين داخل المسجد (لا خارجه).

إن المرء لا يجد أبلغ من بصقة كبيرة على وجه العالم الذي يضل سبيله عن الحقيقة الناصعة، لتسوده أكاذيب الدعايات الإسرائيلية المفبركة، والتي لم تخجل من أن ترسم طاقية على صورة رأس محمد الدرة لتزوير هويته ولتسويق موتنا لحساب جلادينا المغرمين بلعب دور الضحية لدى الأمريكيين. وبذلك لا يعود للفلسطينيين شيء لم يستول عليه الإسرائيليون.

<u>عروبة القضية لا تعريبها..</u>

<u>وإسلامية القدس لا أسلمتها</u>

أشد الأشياء إثارة لفقد الصواب هو اختلاط المفاهيم. ونحن الفلسطينيين بحاجة إلى صفاء الفهم والتمييز وإلى إحكام التعبير عند تناول بعض الأمور الحيوية، ومن أبرزها علاقتنا بإخواننا العرب والمسلمين. فالفارق يجب أن يكون واضحا في أذهاننا بين المواقف التي قصرت فيها الأنظمة عن واجبها تجاه فلسطين والأقصى، ولقي الفلسطينيون في المطارات والحدود والسجون ما لا داعي لإعادة سرده، وبين مواقف غالبية الناس في البلاد العربية، لاسيما أصحاب الضمائر وطلائع الوعي، وهي مواقف مشاركة في المعارك فضلا عن التعاطف والتأييد والمساندة.

منذ بداية النضال الثوري الفلسطيني المسلح عام ١٩٣٥، قاد عز الدين القسام، وهو العربي السوري من جبلة الساحل، ثورة مسلحة في أحراش يعبد واستشهد هناك. وفي العام الذي يليه التحق سعيد العاص، وهو العربي السوري من حماة، بالثورة الفلسطينية واستشهد في معركة باب الواد. وفي عام ١٩٤٨ تطوع قادة حزب البعث العربي من إقليم سوريا، ومنهم ميشيل عفلق وصلاح البيطار، في حرب فلسطين. وتطوعت كتائب الإخوان المسلمين من مصر للجهاد في فلسطين. وجاء مئات المتطوعين من أبناء العراق ليقاتلوا في فلسطين. والتحق

بالنضال الفلسطيني مشايخ عربان من عشائر الجازي بشرق الأردن وعلى رأسهم نايل الجازي إن لم تخني الحافظة.

وفي مرحلة الثورة الفلسطينية التي عشناها منذ منتصف الستينيات، حارب في صفوفنا بالأردن وسوريا ولبنان متطوعون من المشرق والمغرب، كان بعضهم أكثر إخلاصا وحماسة من كثير من الفلسطينيين.

والمغزى ذاته ماثل في قصة الطفل المصري الذي فارق بيت أهله بالقاهرة في شهر تشرين الأول أكتوبر من العام الماضي، أي بعد شهر واحد من نشوب انتفاضة الأقصى، حتى وصل إلى رفح سيناء، ليلتحق بأطفال فلسطين في مواجهة المحتلين. وروى لي أحد الأصدقاء من الحجاج العائدين من الحج أن سائق سيارة أجرة بمكة أصر حين عرف أن الراكب فلسطيني على عدم تقاضي أجره إلا في أضيق الحدود، وتحدث ذلك السائق عن ولده الشاب الصغير الذي تغيرت أحواله بعد أن شاهد صور الانتفاضة، ولم يعد له هم في ذهابه وإيابه غير البحث عن طريقة للذهاب إلى فلسطين وإنجاد إخوانه هناك.

هذا كله بديهي ومفهوم. لأن الرابطة القومية ورابطة الدين ليست أمورا وهمية اخترعها المخترعون. وإذا كان البعض يتنكر لها ويحرص على كرسيه أكثر مما يحرص على شرفه وعلى جلدة وجهه، فإن أولئك هم الأقلية، ولو أنهم يتربعون على الكراسي ويمسكون بصولجان الحكم. أما أكثرية الأمة فشأنهم شأننا تماما، يستشعرون المحنة التي نكابدها، ويتمنون أن يبادروا للمشاركة في المقاومة، ولكن حركتهم مقيدة.

وحقيقة القضية الفلسطينية أنها قضية عربية إسلامية، لا لأن فلسطين نفسها جزء من الوطن العربي الكبير وحسب، ولا لأن الأقصى هو سلم صعود الرسول إلى السماء ليتلقي الصلوات ويكون إماما للرسل في الصلاة الجامعة وحسب، ولكن أيضا لأن الغرب ممثلا في بريطانيا لم يتول السعي لإنشاء إسرائيل بعد الحرب العالمية الأولى إلا لتكون إسرائيل خنجرا يمزق الوطن العربي في موضع القلب، ويحول دون وحدتها وتطورها الاقتصادي.

نعم! لم يمض على فصل فلسطين عن جسم الأمة الحي، بفعل البريطانيين، إلا ثمانون عاما. فهم الذين سلخوها ووضعوها تحت انتدابهم ليسهروا على تمكين الحركة الصهيونية من الاستيلاء عليها وإقامة دولة غريبة عن المنطقة تناصب أهل المنطقة العداء، وتشاغلهم مشاغلة الاستنزاف، لكي لا ترفع الأمة رأسها وتستقل بمواردها النفطية. وما زال احتكار النفط العربي هو هدف الولايات المتحدة الأمريكية. وهو أوضح تعريف لما تدعوه دائما (المصالح الحيوية) التي تدور عليها سياساتها في هذه المنطقة من العالم.

نحن لا نأتي في ذلك كله بجديد. وإنما نكرره لأن بعض كتابنا الذين وصلوا إلى درجة اليأس من الأنظمة العربية بعد مؤتمري القمة الأخيرين، بسبب هزال استجابات القمة إزاء التحدي الرهيب الذي يجابه المنطقة، عبروا عن الفجيعة بكلام يحمل من الحرد أكثر مما يحمل من القصد والغرض، فقالوا ما معناه :اتركونا وحدنا فلستم أهل القضية ولستم أهلنا.

والحقيقة أن قضية فلسطين قضيتهم، وأن الفلسطينيين مرابطون في الخندق الأول دفاعا عن الأمة وبالنيابة عنها كلها. وبين الفلسطينيين وبين إخوانهم العرب روابط لم تقم بقرار من أحد ولا تنفك بقرار من أحد. كما أن الدراسات السياسية العلمية وليس حديث المتدينين وحده

تقول إن للعامل الديني تأثيره السياسي حتى على أولئك الذين ينتمون انتماء وراثة تقليديا وليس انتماء التزام إيمانيا إلى فئتهم الدينية.

إن التوكيد على هذه المعاني، وتوسيع أفق الصف المقاوم ضرورة ماسة حاضرا ومستقبلا. ومن المؤكد أن ما يجمع العربي السوداني مع العربي الفلسطيني أكثر كثيرا جدا مما يجمع الفلاشا الحبشي مع البولندي الإسرائيلي.

ولم يعد هناك مجال للشك بعد أن نبذ الجمهور الإسرائيلي مساعي السلام واختار قادة المذابح والترانسفير ليكونوا أصحاب القرار في إسرائيل أن الصراع طويل وأن جولاته التي حسبنا أنها انتهت عادت بعدما هيأنا أنفسنا للسلام وألقينا الأسلحة واقتصرنا في علاقاتنا مع الحكومات وأحزاب الحاكمين حولنا، وهو منهج يحتاج إلى مراجعة فورية وتصحيح جذري.